www.kotobarabia.com

تفاصيل أساسية في الحضارة السومرية

www.kotobarabia.com

د . شاكر الحاج مخلف

ملاحظات اساسية في الحضارة السومرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعب الذي بحث عن المعرفة وخط أبجدية العلوم ومنح الإنسان حق الإبتكار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما تنظر إلى القمر ذات ليلة اشتد فيها ظلام حالك يخبرك شعاع العين عن وجود كرة مضيئة بعيدة جدا، قيل فيها من الشعر والغزل والبحث الكثير، ولكنها تبقى كرة مضيئة حتى لو وصفها "علي بن أبى طالب " بالصخور الجلاتينية والرمال الكلسية وحتى لو أطلعت على تقارير الأبحاث الفضائية وأنت تتجول في أكبر تجمع لغزو الفضاء، تبقى تلك الكرة القمرية مضيئة ،وإذا غيرت اتجاهات المعادلة العلمية وركبت خيالا متقدا بالوعي والإحساس نحو بدايات التاريخ المعرفي والحضاري ستقودك تلك المركبات الحسية غير المرئية إلى محطة مأهولة وتتوقف قسرا عند بوابات أولى الحضارة الرافدية ، ستجد سومر، هي أيضا كرة مضيئة أكبر من حجم القمر والأرض وتفرعاتها المذهلة والجميلة توازي الكواكب والمجرات، وإذا قررت أن تكتشف ذاك الكوكب المأهول وتتحرك إقدامك فوق تراب تلك الأرض المقدسة العراقية الجنوبية، ستقرأ فوق رقائق الطين والقصب والبردي علامات دالة لا يختلف اثنان من سكان هذا العالم الجديد، على أن هناك في" أوروك "ازدهرت أول حضارة اهتدى إلى مفرداتها الإنسان السومري، وكانت جذورها تستند إلى حقبات قديمة امتدت حلقاتها المتداخلة إلى عمق ما قبل التاريخ ودامت بشكل متواصل أحيانا أو متباعد في فترات لاحقة حتى اقتربت من حافات العهد المسيحي، في " مدائن سومر " كان العقل البشري يجتاز مجرات الخوف ويواصل العمل بثبات لاختراع أول نظام حقيقي للكتابة حتى إذا تطور وارتقى أحدث ثورة في الاتصالات غير بعيدة الشبه عن الثورة التي أحدثتها الاختراعات الإلكترونية في العصر الحاضر، إذ ترتب عليها آثار بعيدة المدى، تلك الظواهر التي حصلت في سلم الحضارة السومرية لم تكن ملحوظة ولا متوقعة ساعد حدوثها في تقدم الإنسان اقتصاديا وعلميا وثقافيا،لقد انتشرت أفكار السومريين وتقنياتهم واختراعاتهم شرقا وغربا فتركوا بصماتهم على جميع الثقافات القديمة، لا بل على ثقافتنا الحاضرة إلى حد ما..

جذور الثقافة السومرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرى الباحث في علوم الحضارات القديمة" James Mellaart"
"أن جذور الثقافة السومرية، أو تلك الأسس التي كانت تشكل القواعد والأعمدة القوية لتلك الحضارة الباهرة والتي ولدت في الألف الرابع قبل الميلاد وتمثلت ببناء حضارة سومرية جديدة على أنقاض حضارة " تل العبيد "والتي انطفأت مراكزها الواحد أثر الآخر بتأثير الضغط الجديد، ويبدو أن الثقافة السومرية التي ازدهرت فيما بعد هي امتداد لتلك البدايات الحضارية والثقافية التي تبلورت بواكيرها في حضارة تل العبيد (1) أن وجود ظواهر أخرى تم تحديدها والإشارة أليها ضمن معطيات التحولات التي رافقت حضارة تل العبيد تجسدت في ظاهرة الاستقرار في الأرض وأيضا بناء المستوطنات الدائمة ذات الشكل البدائي، ثم الإشارة الأولى التي سجلت هوامش البحث عن المعرفة والتجريب العلمي ممثلا في الاكتشافات البدائية والمهمة جدا مثل التأسيس لعلم الزراعة والبداية في تنظيم الإنتاج وتعدد أنواع الغذاء إلى جانب تدجين الحيوانات وامتلاك قطعان الماشية ومغادرة الكهوف والبداية الفعلية في إنشاء التجمعات السكنية الهادفة إلى الاستقرار فوق أراضي السهول الزراعية ذات الأرض الخصبة والتي تتوفر لها المياه وأيضا كما يسجل في تلك المرحلة الاهتداء إلى أسلوب التصنيف للبذور ، والبداية بزراعتها بعد أن أنفق أسلاف الإنسان السومري السنوات الطويلة في تجارب قاسية متواصلة لجمع تلك الحبوب وتصنيفها والبداية في وضع الجداول الزمنية لزراعتها حسب المواسم الطقسية المتغيرة،تلك المفردات شكلت ظهور الشكل الحضاري الجديد وعملت على تدعيمه بأهم الاختراعات آنذاك كما عملت على طي صفحة التخلف المتمثلة في مرحلة الصيد البدائي وحياة الكهوف ود شنت مرحلة الزراعة والاستقرار وأعلنت بداية تشكل الجانب المعرفي والاقتصادي وتأسيس القاعدة الحضارية ذات الأبعاد المختلفة، أن أكثر الدلائل وأهمها عقلانية تشير حتى هذا الوقت إلى حقيقة جوهرية تفيد بأن تلك التحولات التي رافقت بداية الحضارة السومرية هي التي شكلت القاعدة القوية لتأسيس حضارتنا الحالية .. (2)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تشكيل الظاهرة البيئية

فرضت العوامل الجديدة التي رافقت فضاء التشكيل الحضاري الجديد حالة من التأقلم والتلائم مع عوامل الطبيعة القاسية وبقية المظاهر الأخرى السابقة، تلك العوامل مجتمعة أدت إلى تحول كبير وهام جدا تمثل في ظهور المدن والتأسيس للظاهرة البيئية في إطارها الأول ، ووضع العلامة الأولى أيضا للمدنية البشرية ،الأمر الذي قاد بشكل حاسم إلى تبلور التكوينات الاجتماعية والدينية والسياسية والتشريع ،وكذلك اعتماد الطقوس وابتداع الأساطير ، وصولا إلى أهم أختراع سجلته تلك الحضارة للبشرية ، وهو اكتشاف علم الكتابة ،ذلك الإنجاز الذي أحدث انقلابا جذريا في كل أشكال الحضارة اللاحقة ، وأدى أيضا إلى تطور واضح في مفردات الحياة بشكل عام ،يرى عالم السومريات "S. N . Kramer": أخترع السومريون كل العناصر الأولى التي قامت عليها حضارة الإنسان المكتوبة والى جانب الكتابة السومرية وهي أول كتابة في تأريخ البشرية، قدم السومريون أيضا اختراعات واكتشافات أكثر أهمية مثل العجلة والمحراث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزراعي وأوجدوا النظام العشري وكذلك قسموا محيط الدائرة إلى (360 درجة) والسنة إلى (365) ووضعوا أسس الرياضيات ومبادئ الهندسة ورصدوا الأفلاك والمحراث والنجوم وبنوا المعابد وأسسوا نظم الحكم والإدارة ووضعوا صياغة للشرائع الدينية والدنيوية في القانون وتنظيم أمور الحياة (3) هذا الرأي يدحض جميع الآراء التي تثار حاليا في تلك المؤلفات والأبحاث الموضوعة لهدف رخيص وغير أخلاقي، تحاول تلك الأقلام عبثا المساس بالحضارة السومرية، يتناسى أولئك المدفوعون إلى هدف مشبوه الحقائق الجوهرية التي هي أصلا لا تقبل الجدل أو التزييف أن تلك المحاولات المشلولة التي انطلقت من بعض الباحثين العرب والأجانب في إسناد تلك المنجزات الحضارية إلى أقوام أو بقاع مجاورة لبلاد النهرين وربط الحضارة السومرية إليها بصفة تابع، تظل عقيمة لا تحمل في طياتها سر القوة أو الديمومة، بل هي مذمومة واهية تحركها عقدة التناقض السياسي ، أو الجغرافي ولن تجلب لأصحابها غير الاحتقار ، لنتوقف مرة أخرى عند رأي آخر للباحث في علوم الحضارات القديمة" James E arliest Mellaart " الذي يقول في كتابه الموسوم" Civilization Of The Near East ":في سومر

وضمن حوض وادي الرافدين باشر الإنسان صنع الحضارة على قواعد أعمدة قوية يغمرها نور المعرفة والعلم، وكان ظهور الشكل الأول للتكوينات المدنية قد تم في سومر بوادي الرافدين ثم أنتقل ذاك الإنجاز الحضاري إلى مصر وشرق الهند ثم إلى بقاع أخرى من العالم " (4)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التأثيرات الحضارية السومرية

أن الحلقات الحضارية التي تعاقبت في وادي الرافدين والتي امتدت بين شواطئ " الدجلة والفرات " وفي مناطق السهل الرسوبي الأخرى وتحديدا الوسطى والجنوبية منها والتي تمثلت في ظهور حضارة " تل حسونة " و " تل سمارة " و" تل حلفا " تلك الحضارات نشأت على ضفاف سومر وفعلها الحضاري المتقدم والمثير وحولها نشأ عدد آخر من المواقع المتأثرة بها، كان التقليد للحضارة السومرية يحاكي كل مفاصل التطور الحضاري والمعرفي يرى الباحث والعالم"Joseph Campbell " التكوين الجغرافي لبقعة الحضارة الأولى على النحو التالي: أن الأرض الممتدة بين كثبان الرمال الصحراوية وحافات جبال زغروس، هي تلك الأرض الخصبة والتي تشكل وادي الرافدين (5) لقد اتفقت الكثير من الدراسات الايكولوجية ذات المنهج العلمي الذي اعتمد على توثيق الاكتشافات الأثرية من خلال جهود العديد من البعثات التي عملت في مجال التنقيب في القرن الثامن عشر وما تلاه من الزمن الماضي ، وقدمت نتاج أبحاثها مقرونا الأدلة والبراهين القاطعة للشك"أن التأثيرات الحضارية السومرية واضحة المعالم في العديد من الحضارات اللاحقة والتي ظهرت في البقاع المجاورة، فهي مثلا المحرض الأساسي للنهضة المدينية الأولى التي نشأت مع بداية عصر الأسرات في مصر عام (2800 ق.م) بعد ذلك انطلقت نحو كريت غربا والهند شرقا ثم الصين وأخيرا عبرت المحيط الهاديْ(6) أن البحث في مفردات تلك الحضارة يجعلنا أمام حالة انبهار كبير لا تقل عن تلك الحالة التي ترافق المنجزات العلمية والحضارية التي يسجلها الإنسان المعاصر" أن ارتفاع بناء المعابد وتلك الطقوس التي يديرها بقواعد صارمة تقترب من السموّ كهنة صارمين متفرعين من شجرة الآلهة وتلك الأشكال المعمارية المتطورة الطراز ذات النقوش الجدارية والمحروسة بتماثيل ترمز إلى القوة، تلك المدنية الباهرة شكلت بمفرداتها الحضارية ذات الآفاق المفتوحة بؤرة الإشعاع الأولى لحضارة الكون (7) وهكذا نجد أن وجهات نظر الكثير من العلماء والباحثين متفقة على تضمين إنجازاتهم العلمية المتعلقة بالحضارة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السومرية في بلاد ما بين النهرين أفكارا متقاربة تشير إلى أن الحضارة الكونية شجرة سومرية ذات أصل واحد وفروع متعددة ،يرى الباحث العالم " S.N. Kramer " في كتابه " Dumuzi And Inanna ":
جميع إنجازات البشرية تستمد جذورها من بلاد ما بين النهرين، حيث تم البحث في الميثولوجيا البابلية عن منابع الدين المصري واليهودية والمسيحي (8)

قلعة الحضارة والمعرفة

بلاد سومر هي تلك الأرض التي توسعت وصارت تمتد من بغداد شمالا حتى حافات الخليج جنوبا وتكونت تلك الأرض على مر العصور من الطمي المتواصل في النهرين الدجلة والفرات، وبسبب الطقس الحار والجاف ظلت تلك السهول جرداء واقعة دوما تحت تأثير هبوب الرياح الصحراوية القاسية، وهكذا ظلت ردحا من الزمن قاحلة يندر فيها الزرع،، إلا أن الإنسان السومري القديم أكتشف سرّ تلك الأرض وعمد إلى شق الجداول والسواقي والقنوات وأقام بذلك نظاما للري أحيا به الأرض فتحولت تلك السهول الجرداء تقريبا إلى أرض خصبة صالحة للإنتاج الزراعي، وعلى مدى الحقب الزمنية المتتابعة تغير كل شيء وصارت تلك الأرض توصف ب" جنة عدن " كما ورد في أسفار العهد القديم، ترى الباحثة البولونية" كريستينا غافليكوفسكا " في كتابها الموسوم "S ztukaMezopotamii "
والمكرس في مجمل فصوله للحديث عن مصادر الفن والحضارة الرافدية، فهي تؤكد على المفهوم التالي :بلاد ما بين النهرين هي جسر طبيعي ممتد بين بلدان حوض المتوسط في الغرب والهضبة الإيرانية في الشرق، وبين جبال أرمينيا والأناضول في الشمال والخليج العربي في الجنوب وقد يسرت له سهولة المواصلات في هذه المنطقة الخالية عمليا من المرتفعات الكبرى والتي يخترقها نهران صالحان للملاحة الاتصال بالشعوب المجاورة دوما، ولكنها شجعت في الوقت ذاته هذه الشعوب للإغارة مرارا على البلاد،فقد نظر الجبليون من زغروس والرحل من البوادي المجاورة بأعين نهمة إلى أرض ما بين النهرين (9)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يدون علم الآثار والعلماء الذين نقبوا في المواقع الحضارية العراقية المختلفة وبشكل خاص في مواقع تكوين الحضارة السومرية، أن اكتشافاتهم اللاحقة أفرزت حقائق في غاية الأهمية غيرت جوهر تاريخ العراق القديم أصلحت المقولات والنظريات السابقة التي كانت ترى حسب مفاهيم الإغريق والعبرانيين " أن البلاد التي يطلق عليها اسم بابل وينطق سكانها باللغة السامية هي بوابة الكون أوهي قلعة حضارة العراق القديم "تراجعت تلك المقولات أو النظريات إذا صح التعبير إلى الوراء، وعندما توصلت جهود البحث والتنقيب إلى دخول بوابة حضارة أخرى ومن خلال تحليل رموز الموضوعات والوثائق المكتوبة أضطر علماء الآثار والمعنيون بكتابة تاريخ العراق القديم إلى التسليم بالحقائق الجديدة التي ترى أن البابليون لم يكونوا أول الذين سكنوا بلاد ما بين النهرين ، بل سبقهم قوم أكثر شأنا أطلقوا على أنفسهم اسم السومريون وعلى بلادهم اسم بلاد سومر، ويرى عالم الآثار البارز "كر يمر " أن السومريون كانوا يتكلمون لغة مقطعية، هي لا تشبه السامية ولا الهندو أوربية واليهم يعود الفضل الكبير لا في تأسيس عهد يعتبر من أعظم تلك العهود التي حفلت بها أرض ما بين النهرين، ذاك العهد الذي أبتكر فيه الإنسان الخلق والإبداع والابتكار.(10)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

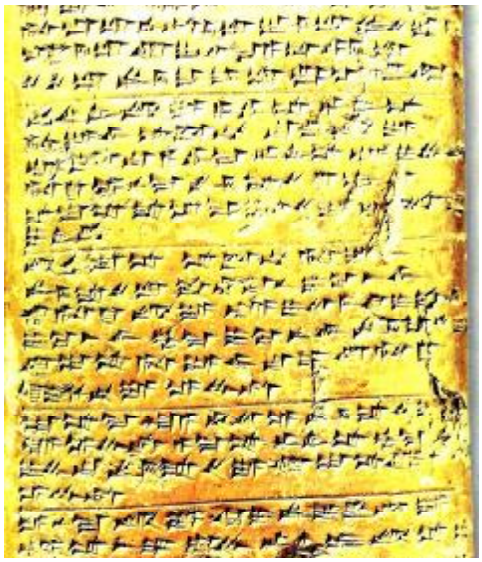

اختراع الكتابة ومفردات أخرى

في القرون التي تلت كانت دورة الحضارة السومرية في صعود متواصل حيث ارتفعت سومر إلى ذرى جديدة من القوة السياسية والثراء الاقتصادي، وأنتجت بعضا من أهم إنجازاتها في الفنون والصنائع والهندسة التذكارية والفكر الديني والأخلاقي والأسطورة والملاحم الترانيم، وفوق كل هذا، عندما أصبحت اللغة السومرية هي اللغة السائدة في البلاد، كما طور السومريون نظاما للكتابة جعلوا منه أداة فعالة في الأنصال اتخذوا الخطوات الأولى في سبيل اعتماد التعليم الرسمي (11) والى جانب ذلك يعد ظهور فن العمارة الدينية من أهم الشواهد على مستوى الحضارة الرفيع وغنى المستوطنات في ذلك الزمن البعيد ، وأيضا استبدلت القرية بالمدينة ونشأت مبان ضخمة بدلا من المعابد الأولية الصغيرة وتدريجيا نمت حولها المدن ، مثل أوروك ، الوركاء ، أريدو ، لغش ، كيش ، تل أبو شهرين ، تل الأحيمر ، سيبار ، وتل أبو حبة وغيرها من المدن السومرية، يضاف إلى ذلك أن نظام الحياة في سومر وما رافق تلك التقسيمات الإدارية والاجتماعية قد افرز أنماطا من القصص الأسطورية والتي كان مصدرها الخلافات والحروب بين المدن البعيدة، وقد نقلت الروايات المدونة بالكتابة المسمارية السومرية أخبار تلك النزاعات للأجيال اللاحقة مضخمة مشبعة بالأساطير التي تدعم ادعاءات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومزاعم مختلف الأوساط في ممارسة السلطة العليا على الآخرين، كما نجد في حلقات التاريخ السومري ثمة علاقة واضحة تؤكد أن ازدهار البلاد ورفاهيتها استمدتا من الحياة الواهبة ومن عناية الآلهة وظل الإرث السومري قائما واتسع نطاق تأثيره ليشمل كامل بلاد النهرين ويتجاوز حدودها إلى حيث بلغت جحافل الفاتحين " كانت مملكة سومر كثيرا ما تهن قوتها وتفتر نتيجة للحروب المتواصلة التي كانت كثيرا ما تشتبك فيها مدائنها سعيا إلى التفوق والسيطرة (12) ومع ذلك فالسومريون لم يفرضوا لغتهم على المناطق التي فتحوها، ولم تعد قواعد الكتابة المسمارية لغزا بعد ظهور أجيال عديدة من الباحثين، الذين اهتموا كثيرا بآداب هذه الكتابة" تم التنقيب عن عشرات الألوف من الرقم الطينية المنقوشة بالخط المسماري اهتداء بأقلام القصب المدفونة تحت التربة في المدائن السومرية القديمة وهي الآن محفوظة في المتاحف في جميع أنحاء العالم (13) .

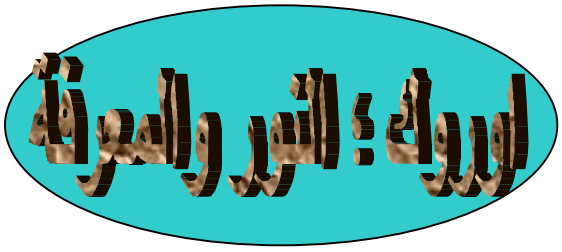

في عام (853) أو بعد واقعة اكتشاف مكتبة " آشور بانيبال " الكبرى في مدينة نينوى، أدرك العلماء أن نظام الكتابة ، وأسلوب النحت النافر والتماثيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعقدين ، هما نتيجة تطورية الأمد " كان النتاج الأدبي الهائل للعصر في الواقع من صنع جيش جرار من الكتبة، لقد تدرب هؤلاء في مدارس خاصة في الوقت الذي كانوا ينفقون أياما مضنية في الكتابة على رقم طينية صغيرة وصل الكثير منها إلينا سالما(14) واليوم ونحن نبحر نحو أيام التاريخ البعيد لتكوين فكرة عن الثقافة السومرية بفضل غنى وتنوع الكتابة في بلاد ما بين النهرين القديمة ، نجد أن الهدف الذي استحث مخترعي الكتابة الرافديين، والذي تجمع الآراء على انهم السومريين، لم يكن يتمثل في نقل الأفكار والملاحظات" لقد بدأت الكتابة على هيئة سلسلة من العلامات البكتوغرافية والتي وضع تصاميمها السدنة والكهنة في المعابد وكان الغرض منها استقصاء موارد المعبد وأوجه نشاطه ،لذلك كانت تستخدم في مبدأ الأمر، وفي تدوين الشؤون الإدارية البسيطة فقط " (15)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أولى نماذج الكتابة تعود إلى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد في أوروك، وهي بصورة رئيسية تمثل وصولات استلام وشتى أنواع السجلات والوثائق المستخدمة من قبل أدارة المعبد التي سهلت بذلك عملية جمع وتوزيع السلع المادية وكانت تلك الكتابة تتكون من رموز عادية وقد جمعت كافة هذه الكتابات المحفورة على ألواح طينية وجففت فيما بعد وأدت تلك المنطلقات العملية الصرفة إلى تعميم الكتابة وبوشر بإدخال عدد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الابتكارات للتعبير عن المضامين التي يتعذر عرضها برسوم بسيطة ومع أن أسلوب الكتابة بالنقش على الطين الطري لم يكن صالحا بدرجة كافية لعكس الأشكال الحقيقية للأشياء " من النتائج المباشرة التي ترتبت على اختراع الكتابة المسمارية إدخال نظام التعليم السومري وتطويره (16) وفي مرحلة مبكرة اتخذت الكتابة المحفورة على الحجارة الأشكال ذاتها وجرى تعديلها فيما بعد لتعكس المفاهيم التجريدية والصيغ النحوية " بعد أن تم تجاوز الخطوات الأولى في تطور الكتابة المسمارية، تكونت برامج تدريس كانت تقوم على نسخ _ نصوص كتابية _ واستذكارها، وكانت هذه النصوص تشتمل على قائمة طويلة من الكلمات والعبارات كان فيها أسماء شجر وحيوان وطير وحشرات وبلدان ومدن وقرى وحجارة ومعادن " (17) وبمعنى آخر كل ما يستطيع اللسان النطق به، وكان إتقان أسلوب القراءة والكتابة شديد التعقيد يعد نجاحا باهرا ولذلك برع به الكتبة المحترفون وحدهم " ساعدت مقاومة المواد المستخدمة في الكتابة والظروف المناخية الملائمة في بلاد ما بين النهرين على حفظ عشرات الآلاف من الألواح ذات المواضيع المختلفة "(18)

الثقافة والفنون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضمن حضارة سومر ظهرت العديد من النصوص القانونية والعلمية والسحرية والدينية، تلك النصوص حظيت بأطول فترة من البقاء وظلت تشكل جزءا حيا من التقاليد لآلاف السنين عند الحديث عن نشاط الكتبة والكهنة العلمي في مجال فقه اللغة "لقد كان الغرض الرئيسي من إنشاء المدرسة السومرية يرمي إلى تدريب جهاز من الكتبة والأمناء، وما لبثت أن أصبحت مركزا للثقافة والتعليم، فقد ازدهر بين جدرانها الباحث والعالم والشاعر(19) تمت المحافظة على الأدب السومري بفضل الألواح التي تعود إلى عصر مملكة ايسن - لارسا" كان التعليم السومري والإنسان السومري يصطبغان بصبغة عميقة من الحض السيكولوجي على التفوق والظهور وحب الجاه والشهرة وكانوا يكنون نظرة عالية للبشرية في مجموعها" (20) وهكذا نشأت أكبر مجموعة من الكتابات الرافدية بمبادرة من الملك الآشوري " أشور بنيبال " وضمتها مكتبته في نينوى، حيث بقي محفوظ منها ما يزيد عن عشرين آلف رقيم، كان الهدف منها تجميع كامل الإرث الثقافي للعصور السابقة ، لكن النسخ التي أعدت بتوجيهات من الملك في مختلف أرشيفات بابل وأشور لم تشمل بطبيعة الحال كافة الأعمال، بل اقتصرت على تلك التي مثلت أكبر قيمة من وجهة نظر المعاصرين مثمنة من الناحية النفعية، فالروايات المتعلقة بالآلهة وبنشأة العالم كانت لها قيمة معرفية، والنصوص السحرية كانت ذات منفعة عملية أما الحكم والأمثال والتأملات في الحياة فقد ساعدت على تنمية فكر الإنسان" كان السومريون أساتذة أنواع عظيمة من الأشكال الأدبية بما في ذلك الملاحم والأساطير والخرافات والأناشيد الملكية والدينية وأناشيد النواح، مثال ذلك عند سقوط مدينتي " أور ونفر " وكذلك مراثي " لودنكرا " بمناسبة وفاة أبيه وزوجته، والكتابات التي تمجد الحوادث التاريخية والنذور وتشريعات القوانين، كشريعة " أور- نمو " وصيغ العبادة والطقوس الدينية وكتب الأمثال (21)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السومريون رفضوا الفكر التجريدي

أن كافة الأدبيات الجيدة تمثل قيمة معرفية ، وقد اقتصر الباحثون على الاهتمام بهذه الأعمال ،وحدها وهي المعروفة على نطاق واسع، وقد وجد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مكتبة" أشور بنيبال "ما يزيد عن ثلاثمائة رقيم من شتى نماذج المعرفة، وحوالي مائتي قاموس ومائة من نصوص الصلوات وحوالي مائة رقيم تحوي أدعية وتعاويذ" بينما لا يتجاوز عدد النصوص التي كنا سنضعها في عدد الآداب الأربعين. ولكن لابد لنا من الآخذ بنظر الاعتبار بأننا أمام ثقافة ذات نظام مختلف جذريا عن نظامنا، فلنحاول أذن فهم الناس الذين كانت العرافة والأدعية والتعاويذ تستحوذ على اهتمامهم اكثر من أي شيء آخر، ولنحاول أيضا ولوج هذا العالم الغريب ..

،تقدم لنا الابتهالات والأناشيد والصلوات السومرية والآكادية ، معلومات عن فيالق لا تحصى من الآلهة ذوي الخصائص والوظائف المتباينة وبروايات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مختلفة ومتناقضة أيضا في تفاصيلها وهي تتحدث عن نشأت العالم وأعمال الآلهة والأبطال الأسطوريين (22)

كانت المعابد السومرية القديمة أهم بناء في المدينة و أعلاها وهي توجه مجمل الحياة الاقتصادية للسكان ولذلك لجأ الكهنة للبحث عن وسائل لتثبيت مختلف المعطيات والتمكن من ممارسة الرقابة بصورة فعالة وكانت المدينة بأكملها تعود ملكيتها إلى كبير الآلهة الذي خصت به يوم خلق العالم، اعتقد سكان بلاد ما بين النهرين القدماء بتجانس الواقع الموضوعي كحقيقة لا يرقى لها الشك فالآلهة والبشر والكائنات الحية والأشياء الجامدة والأسماء الموجودة في اللغة لا تشكل مقولات وإنما أجزاء من العالم ذاته، ولاوجود للفصل ما بين المادة والروح ، وتؤدي هذه الوحدة إلى قيام علاقة نسبية بين جميع الأشياء ويجب البحث عنها في الظواهر وفي تنوعها اللامحدود وذلك بالمراقبة الدقيقة والمتمعنة للحقائق وتصنيفها في ترتيب منطقي، وتعد هذه الطريقة في الاستدلال والبحث صحيحة لكل مجتمع بشري حاول العثور على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسائل عمل ناجعة في عالم مجهول، ولم تكن طرائق الفكر في العصور الحديثة مختلفة عنها، فهي أيضا بحثت عن العلاقات الحتمية بين النتائج والأسباب، تقصت الحقائق وصنفتها كما أنها استطاعت عبر التعميم أن تميز الخصائص الجوهرية عن العرضية، وفي هذه النقطة يكمن الفرق الأساسي، لم يعرف السومريون وخلفائهم الفكر التجريدي وإنما الفكر العيني، ووضعوا نصب أعينهم قضية التكهن بالمستقبل ولهذا الغرض تكرس كامل نظام التفكير، لأن معرفة المستقبل بدت ضرورية أكثر من دراسة وتفسير ما حدث ولا مجال لتغييره ، حيث يكون المستقبل مقررا مسبقا، ففي مطلع كل عام يقرر الآلهة مصائر المجتمعات والأفراد، ومن هنا تأتي ضرورة السعي لمعرفة نوايا الآلهة من خلال تحذيراتهم المتنوعة، لأن إمكانية التأثير على مجرى الأحداث كانت متوفرة ولو جزئيا ولم تقتصر هذه الإمكانية على الصلوات والتوسلات إلى الآلهة فحسب بل تجاوزتها لتمتد إلى كافة أنواع الأنشطة السحرية، وكان لهذه الأخيرة أن تعطي النتائج المرجوة في حال الممارسة الصحيحة، تعتمد كافة أنواع السحر باختصار على فكرة قدرة بعض الأنشطة على شل تأثير القوى المعادية أو غير الصديقة وتساعد المريض بنفس الأسلوب وعلى نفس الأساس الذي يفعله الدواء....

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تطابق الرؤيا السومرية مع الحلم المعاصر

الملحمة السومرية الخالدة " جلجامش " أول عمل أدبي مكتمل يكشف عن تفاصيل حضارة راقية، عندما رفع الستار عن حوادثها وفصولها وقيمها الفكرية والوعظية ، تجاوزت حدود "سومر " إلى فضاءات قريبة وبعيدة ، إعصار مهذب موشى بحلم الخلاص من الكابوس المرعب ، ينتشر في المدن والحيوات الأخرى ، حلما سرمديا لا تشبع منه العقول يعاد ويعاد والتأويل تتوالى، وعندما ضربت أمواج ذاك الحلم السومري العراقي الجميل شطآن العالم المعاصر، استفزت البشرية ورأت ضآلتها أمام بوابات ذاك الحلم الجلجامشي الذي صار مدخلا وسراجا لفهم تفاصيل تلك الحضارة التي سادت في أوروك ثم بادت وتركت المعاني الكبيرة ، هذا الأثر الأدبي المهم يتواجد في اغلب مكتبات العالم المخصصة للمطالعة، كما يحتل مكانا مرموقا لدى الأدباء والشعراء، وكذلك جمهرة المهتمين بدراسة الحضارات القديمة والآثار، ولكونه من النفائس النفائس ترجم إلى أغلب اللغات التي تتداولها شعوب الأرض ، البعض يضع هذه الملحمة بذات المكانة للكتب السماوية، ملحمة الينابيع العذبة تجاوزت صدأ الأرض والقلوب وظلت كما أراد لها السومريون تشحن العقول بطاقات الحلم والأمل والبطولة ، تجاوزت حدود الزمن وعبرت المفازات وظلت حية في أروقة الجامعات وعلى مقاعد الدراسة ، نقطة دالة أو وشم كبير في جبين حضارة كانت هي البئر الأولى التي فاض ماءها على أديم الأرض حتى صار طوفانا رافق " أوتونابشتم " وبين الطوفان واستمرار الحياة إلى ما لانهاية تكمن معادلة ملحمة جلجامش الذي لا يمثل ملكا سومريا فحسب بل هو شعاع يدق أبواب المستقبل لكي يحل المشكل الإنساني المستعصي و يمنحنا الخلود الأبدي ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عقد المقارنات

بهدف التشويش والتقليل من دلالات ومنجزات الحضارة السومرية عمد بعض الكتاب العرب إلى مقارنة تلك الملحمة الأصيلة مع ملاحم وأساطير منقولة عنها وتحاول محاكاتها مع بعض التغييرات، أولئك الكتاب العرب المدفوعون إلى فعلهم بدوافع كثيرة لا تخرج عن هدف لئيم في أحسن حالات الوصف إذا قرأت كتبهم تكتشف جهلهم بمجرد الإطلاع على أسماء القادة والملوك والمواقع التابعة للحضارة الرافدية والمدونة خطأ لديهم تتغير الأسماء والمعاني والمواقع والتفاصيل ، استغلوا حالة الفوضى التي يمر بها العراق ، وتيقنوا من أن الحكومة التي ضبطت متلبسة بتدمير و ببيع الألواح والتماثيل واللقى الأثرية لا يعنيها في شيء تزييف مفردات الحضارة السومرية ، ، ومع آني مطمئن تماما إلى عدم وجود أسطورة أو ملحمة تنافس جلجامش أو هي تشكل مصدرا اعتمدته المضامين والتشكيلات الصورية المرتبطة بالقوة والعنفوان والهدف النبيل ، أتوقف عند ذاك الذي يثار حاليا وادخل ساحة المقارنة معتمدا على دراسة كل تلك الأساطير التي جاءت بعد جلجامش واستند إلى مصادرها وليس إلى تلك الكتابات الباهتة التي تروجها عقول مؤد لجة لغايات رخيصة، وسنرى الفروق بين جلجامش وثيسيوس أو أخيل أو هرقل أوذو القرنين أو برومثيوس ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جلجامش السومري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرى عالم الحضارة الرافدية الأستاذ " طه باقر " في كتابه الموسوم " تاريخ العراق القديم " أن مدينة " سومر " هي أول مدينة حقيقية في التاريخ، ويثبت العالم الأمريكي " صموئيل نوح كريمر " في كتابه الموسوم " من ألواح سومر " (1) أن تنقيب البعثات الأثرية في وادي الرافدين أكد بوضوح لا يقبل الشك من خلال التكوينات الأركيولوجية ، أن أوروك كانت أكبر المدن السومرية في الفترة الزمنية التي تعرف " بعصر السلالات "، ويضيف العالم " الكسندر هايدل في كتابه " ملحمة جلجامش " أوروك هي أعرق مدينة في أرقى حضارة مدينيه وصلت قمة ازدهارها (2) ويصف الدكتور سلطان محيسن في كتابه " عصور ما قبل التاريخ " الصادر عن جامعة دمشق ،: أن أريدو بلغت في نهاية فترة " تل العبيد " حجما كبيرا بمقياس ذلك العصر، حيث نافت مساحتها عن العشرة هكتارات ووصل عدد سكانها إلى أربعة آلاف نسمة ،وهذا أكبر تجمع سكاني حققته الحضارة الإنسانية حتى ذلك الوقت ، في أي بقعة من العالم (3) ومع أوروك تبدأ حضارة المدينة وتترسخ أولى تقاليد الحضارة العالمية التي مازلنا نعيشها حتى يومنا هذا(4) وعن أوروك التي كان يحيط بها سور عظيم بني في عام 2600 ق . م ، وكان يقدر عدد سكانها آنذاك أكثر من 60 آلف نسمة، فإذا عرفنا أن سكان مدينة روما إبان العصر القيصري لم يتجاوز 150 ألف نسمة لأدركنا أية عظمة بلغتها مدينة أوروك في ذلك الوقت المبكر من تفاصيل ذاك التاريخ المكتوب على ألواح الطين السومرية (5) أوروك هي المدينة السومرية التي شهدت ولادة عدة أساطير وملاحم ومن بينها ملحمة جلجامش التي عثر على ألواحها مطمورة تحت أنقاض قصر الملك الآشوري " أشور بنيبال " بعد تدميره اثر الهجوم الكاسح الذي تعرض له على أيدي الكلدانيين وذلك في العام 612 ق . م . الألواح واللقى والكتابات المسمارية التي تمثل الحضارة السومرية تؤكد بشكل قاطع أن جلجامش لم يكن صنع خيال أو خيط وهم أو ابتكار أو محاكاة ،كما يدعى البعض ، بل هو شخصية حقيقية ذات حضور خارق وهي من لحم ودم وذات حس بشري يستند إلى أرث حضاري واضح، في بداية القرن الماضي عثرت بعثات التنقيب الأثرية على الألواح التي تضم النصوص المتعلقة بتفاصيل الأسطورة السومرية التي أشار أليها العالم العراقي المبرز طه باقر في كتبه وأبحاثة وأخص منها ملحمة جلجامش (6)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والملحمة المقصودة هي نص شعري طويل مكتوب باللغات السومرية والآكادية والبابلية، وموزع على أثني عشر لوحا فخاريا، ويعتقد بعض العلماء أن ثمة ألواح أخرى لازالت مفقودة أو هي أصابها العطب والتلف ، كما أن طه باقر والدكتور سامي سعيد الأحمد اختصاصي اللغة الآكادية وأستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد ، بذل كلاهما جهدا كبيرا لاستكمال المعاني والأحداث في الألواح التي فقدت بعض السطور أو الكلمات، ويعود الفضل في وصول الملحمة إلى الأجيال اللاحقة إلى الملك الأديب أشور بنيبال صاحب أكبر مكتبة في تلك الفترة ، حيث جمع فيها الأدبيات الجيدة التي تمثل قيمة معرفية ،حيث تم إحصاء ما يزيد عن ثلاثمائة رقيم من شتى نماذج المعرفة ، وحوالي مائتي قاموس ومائة من نصوص الصلوات وحوالي مائة رقيم تحوي أدعية وتعاويذ ، وتجاوز عدد النصوص المعنية بالآداب الأربعين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينها ملحمة جلجامش ، وقد الزم الملك الآشوري شباب مملكته بدراسة وتمعن ملحمة جلجامش معتبرا أنها تفتح العقل على ارتياد المغامرة والعلم المقرونتين بالشجاعة والذكاء، وهناك أدلة توصل أليها علماء الآثار تفيد إلى وجود تقليد يتعلق بإقامة دورة رياضية للتسابق على شرف جلجامش في شهر آب من كل عام ، يتبارى خلالها الشباب في فنون القتال والمصارعة وسباق العربات وكذلك العاب القوى، وقد بقيت تلك التقاليد قائمة في الإمبراطورية الآشورية التي كانت تسمي شهر آب بشهر جلجامش السومري ..

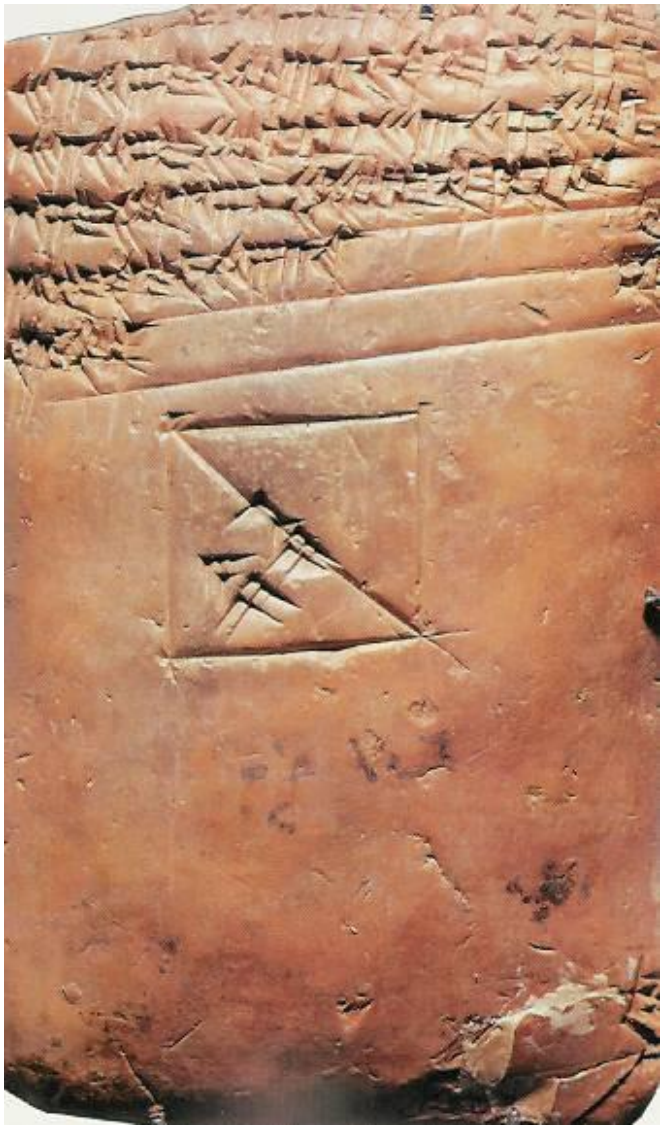

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصل الحكاية في ملحمة جلجامش

أبن الآلهة " ننسون " الذي حملت به من ملك أوروك " لوجال بندا " ، جلجامش الذي ولد ثلثه إنسان وثلثاه إله، وجدته " سومر " متفوقا على رجالها بصفاته الجسمية والعقلية، قويا ذكيا شجاعا، أمسك بصولجان الحكم وهو في مرحلة الشباب، وعندما خلقت الإلهة "آرورو" أنكيدو ، القرين والند والصديق لجلجامش، تغيرت الأفكار والرؤى وصار التأمل العميق في بحر الموت واشرعة الحياة ، يدفعان جلجامش للدخول في إنجاز فعل كبير ، كشف لرفيقه عن فكرة الوصول إلى غابة الأرز الموجودة في أقصى مغرب الشمس وقتل حارسها خمبابا، ذاك الفعل تعارض مع الإله إنليل الذي أوكل إلى خمبابا حراسة غابة الأرز، " يبرز الطابع البطولي عند جلجامش بفضل المظهر العتيق لصورته المعكوسة المتمثلة بالعملاق الوحشي انكيدو ، انهما متماثلان من حيث القوة ويحققان المآثر بصورة مشتركة، غير أن انكيدو يتصف بمظاهر الضعف التي يشكو منها الإنسان الاعتيادي ، فهو يجبن عند التفكير بالقيام بحملة إلى غابة الأرز ضد الغولة خومبابا، أما جلجامش ، الذي تعتبر الشجاعة من صفاته المميزة فيخجل من تصرف صديقه، ولا يصغي إلى نصائح الشيوخ الحذرين، مفضلا عليها الحياة القصيرة والمجد الأبدي (7) ، ورغم الخوف الذي يجتاح أنكيدو، بدأت فصول الرحلة المحفوفة بالمخاطر والخوف، اقتحما غابة الأرز المسحورة وكان صوت خمبابا المرعب يهدر وكاد أن يهلكهما لولا مساعدة الإله شمش الذي أمدهما بثمانية أنواع من الرياح هبت في وجه الوحش المرعب وشلت حركته، أمسكا به وقطعا رأسه وقدماه قربانا لشمش ، " كانت أم جلجامش تشكو ، قبل القيام بحملته إلى غابة الأرز ، من أن الله منح ابنها قلبا جنوبيا (8)، عاد البطلان إلى اوروك ، حاولت الإلهة " عشتار " إغواء جلجامش لكنه رفض عرضها منددا بخيانتها المعروفة لعشاقها وأزواجها ، وردا على تلك الإهانة أطلقت" الثور السماوي " في مدينة أوروك ليعيث فسادا، ولكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جلجامش وأنكيدو ما لبثا أن تصديا له وقتلاه بعد صراع مرير وقدما قلبه قربانا للإلهة شمش، قرر مجمع الإلهة موت واحد من البطلين ووقع الخيار على أنكيدو ، أقام لإنكيدو طقوس الحداد وقبع في قصره وحيدا حزينا وصارت فكرة الموت تطارده " يدرك جلجامش كربة الموت فقط بعد مقتل انكيدو، غير أن هذا لم يكن بسبب الخوف على نفسه شخصيا ، بل بسبب خيبة الأمل لإدراكه حقيقة أن العظمة السامية للشخصية البطولية لم تنقذ الأخيرة من النهاية الطبيعية لكل الناس " (9) ، يحمل الهواجس والأفكار معه تعذبه حتى إذا وصل إلى رمز الخلود " اوتنابشتم" ليسأله عن سر الحياة والموت ..

جلجامش وسيدوري

كان على جلجامش أن يجتاز سلسلة جبال " ماشو " التي تحرس ذراها المتقابلة الفوهة التي تنزل منها الشمس إلى باطن الأرض، ومن بعد تواصل مسيرها في بحر الليل قبل شروقها من الطرف الثاني، سهل له البشر العقارب الموكلون بحراسة تلك الجبال عبور مسالكها الوعرة، أرشدوه إلى أقصر طريق يصل من خلاله إلى أوتنابشتم، وعندما وصل إلى فوهة الشمس نزل فيها ليصل عبرها إلى الطرف الآخر من العالم ، عمل من الخوارق ليس بوسع البشر القيام به، هو من مهمات الإله، اجتاز جلجامش ممر الشمس الأسفل في أقل من ليلة واحدة ، وخرج من الطرف الثاني ليجد نفسه على شاطئ البحر الذي يفصله عن جزيرة اوتنابشتم ، هناك تقيم سيدوري ساقية حان الآلهة، حيث يتوقف الخالدون للحصول على محطة استراحة وتناول الشراب ، ينتاب سيدوري الفزع والخوف وهي ترى عملاقا أشعث يعلو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ملامحه الغبار ويرتدي جلود الأسود، تدخل وتوصد باب حانتها دونه ، لكن جلجامش يناديها ويكشف لها عن شخصيته وأهدافه التي جاء من اجلها وطلب منها المساعدة ، تخبره سيدوري بوجود ملاح أوتنابشتم المدعو " أورشنابي " في المكان يحتطب من أجل سيده، أرشدت سيدوري جلجامش الى مكانه وأخبرته بأنه الوحيد الذي يستطيع بقاربه عبور مياه بحر الموت ، لأنه يملك رقم حجرية عليها طلاسم سحرية .

جلجامش وأورشنابي

أنطلق جلجامش كسهم سريع إلى مكان أورشنابي وفي غمرة اضطرابه وانفعاله العنيف داس فوق الرقم الحجرية التي كان أورشنابي قد وضعها جانبا وهو يحتطب فبعثرها وحطمها، فقال له أورشنابي، بعد أن سمع قصته ، بأن يديه قد حالتا دون عبوره لأنه كسر الرقم الطينية التي تعين الزورق على اجتياز مياه الموت، وبعد تقليب الأمور على وجوهها ، توصل أورشنابي إلى حل للمشكلة فمياه الموت التي تبدأ حدودها بعد مسيرة طويلة في البحر ، هي مياه راكدة والهواء فوقها ساكن، حيث لا ريح تدفع ولا مجذاف ينفع ، وحيث الرذاذ إذا تطاير يقتل باللمس، أختار أورشنابي دفع الزورق بالمردي وطلب من جلجامش أن يحتطب من الغابة مائة وعشرين مرديا طول الواحد منها ستين ذراعا، وعندما أنجز جلجامش عمله ، أبحر الاثنان في الزورق وعندما ولج مياه الموت ، طلب أورشنابي من جلجامش أن يبدأ باستخدام المردي ، كان على جلجامش أن يستعمل كل مردي لمرة واحدة فقط ثم يتركه بعد الدفع إلى الماء، لكي لا تمس يده ما علق عليه من ماء قاتل .

جلجامش وأوتونابشتم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قص جلجامش على اوتونابشتم قصته وما جرى له ورجاه أن يخبره كيف استطاع تحقيق الخلود لنفسه من دون بني البشر ، قص اوتونابشتم على جلجامش قصة الطوفان العظيم بجميع تفاصيلها وكيف انتهت إلى مكافأته بنعمة الخلود عندما قام إنليل بإسباغ نعمة الخلود عليه وزوجته مكافأة له على صنيعه وأسكنهما في هذه الجزيرة ، ثم عمد إلى اختبار جلجامش، كان الاختبار عسيرا والمطلوب منه أن يثبت استعداده ومقدرته على قهر الموت الأصغر وهو النوم ، فكان عليه أن يجلس في وضعية القعود ستة أيام وسبع ليال دون أن يطرق الكرى أجفانه ، قبل جلجامش التحدي مصمما على قهر الموت الأصغر ولكنه بعد وقت قصير راح في سبات عميق أستمر ستة أيام وفي اليوم السابع هزه اوتونابشتم فأفاق معتقدا أنه لم ينم إلا هنيهة، وعندما عرف حقيقة ماجرى له وتأكد من فشله في الاختبار، قرر مغادرة الجزيرة ومعه اورشنابي الذي أمره سيده بمغادرة المكان دون رجعة ومرافقة جلجامش إلى مدينة أوروك ، وبينما هما يدفعان الزورق بعيدا عن الشاطئ، شعرت زوجة اوتونابشتم بالشفقة على جلجامش وطلبت من زوجها أن يقدم له بعضا مما قدم لأجله ، نادى اوتونابشتم جلجامش وأطلعه على سر نبته شوكيه تعيش في أعماق المياه الباطنية؛ حيث مسكن الإله انكي ، تلك النبتة تحمل خصائص تجديد الشباب لمن يأكل منها إذا بلغ الشيخوخة ، غاص جلجامش في القناة المائية التي تصل إلى الآبسو - مجمع المياه السفلية العذبة ، رابطا إلى قدميه حجرا ثقيلا يشده بقوة إلى الأسفل ، وهناك رأى النبتة فاجتثها بعد أن أدمت أشواكها يديه ، ثم حل وثاقه صاعدا نحو الأعلى، ثم عرضها على اوتونابشتم وزوجته وشكرهما وقال: انه سيحملها معه إلى أوروك ليجعل الشيوخ يقتسمونها فيما بينهم ، وإنه سيأكل منها عندما تداهمه الشيخوخة ، ثم أنطلق مع أورشنابي في طريق العودة إلى أوروك، وفي إحدى المحطات التي توقفا عندها للراحة ، رأى جلجامش بركة ماء فنزل إليها واستحم بمائها تاركا النبتة عند الضفة، عندها جاءت حية إلى النبتة وأكلتها وبينما هي راجعة إلى وكرها تجدد جلدها، جلس جلجامش عند الضفة وقد انهار تماما بعد أن فقد حتى الأمل في تجديد الشباب " أن الملحمة البطولية تستحيل هنا إلى قصيدة ميثولوجية يصبح فيها جلجامش رمزا للإنسان بصورة عامة، وبصفته - فاوست بابلي قديم _ فريد يتحول من المآثر البطولية إلى البحث عن معنى الحياة وفي الجزء الأساسي - الملحمي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصرف- من هذا العمل الشعري تتشابك الطاقة البطولية عند جلجامش بالغيظ المهتاج (10) ..

الملاحم التي قدمت جلجامش

جلجامش العظيم أكسبته أعماله شهرة طبقت الآفاق وجعلت منه البطل الأعلى في القصص والأساطير السومرية، فقد كتبت القصائد تمجيدا لأعماله ومآثره، وكانت تكتب مرة ومرة على امتداد القرون ، ولم تقتصر كتابتها على اللغة السومرية، بل تعدتها إلى جميع اللغات الهامة التي كانت منتشرة في أقاليم آسيا الغربية، لقد أصبح جلجامش بطل العالم القديم بامتياز، فهو المغامر والشجاع، لكنه أيضا الشخصية المأساوية التي ترمز إلى سعي الإنسان الدءوب، لقد أصبح جلجامش شخصية خرافية تطوف كما الشمس أرجاء العالم(11) يقارن علماء الايكولوجيا بين ملحمة جلجامش وأسطورة بروميثيوس الإغريقية كلاهما تتصدى للخوض في مغامرة صعبة وقاسية فيها من التحدي والبحث عن المطلق في مضمار الحقيقة الشيء الكثير ولكن ملحمة جلجامش تحظى بامتياز الحس الإنساني النبيل والهدف يسمو كثيرا فالخلود الذي غامر من أجله السومري يوازي النار الأزلية ويكشف كل طلاسم الكون ويحل الرموز المستعصية ، الأسطورة الإغريقية تلمست شيئا في دائرة التناول ، لكن الملحمة السومرية التي سبقتها قطعا بالكثير من الزمن فتحت الباب على مصراعيه للعقل البشري لكي يبحث عن المجهول ويبقى يطارد الألغاز والقوى التي تختفي وراء سجف الطبيعة ، لقد حاول برتراند رسل وهو يؤرخ للفلسفة الغربية أن يظهر تحيزه الكامل للتفوق الفكري عند الإغريق واليونان ، وفيما يخص الرياضيات يذكر أن المصريين والعراقيين القدماء عرفوا الحساب شيئا من الهندسة ولكن معرفتهم في هذا المجال لم تصل إلا إلى " أحكام عامة مبنية على التجربة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلمية لا على التنظير العلمي ! ، ولكن إذا عرفنا أن الأصل الذي أخذ عنه عالم الرياضيات اليوناني فيتاغورس ، نظريته من نظرية وضعها علماء الرياضيات السومريون قبل عصر العالم اليوناني بقرون عديدة ، ولا يزال هذا الأصل موجودا في نقشه المسماري على لوح من الطين المحروق في المتحف الوطني للآثار في بغداد إلى جانب أربع تراجم له، إحداها عربية وثلاث بلغات أوروبية والى جانبها جميعا نسخة من النظرية اليونانية المنقولة (12) وذات الأفكار حاول البعض من أصحاب الثقافة الهشة تسويقها ضد الحضارة السومرية وعلى وجه الدقة الجوانب المتعلقة بالموروث منها في مجال الثقافة؛ أي الأسطورة والشعر والمراثي وقصص الخوارق والأناشيد والطقوس الدينية ، ولعل الدراسات والأبحاث التي أنجزها صفوة من الباحثين والعلماء السوفييت المختصين بنظرية الأدب والموروث القديم تشير إلى الأتي " نجد المحاكاة لأساطير الحضارة الرافدية قد تم في الكثير من الأساطير وقصص الخوارق اللاحقة ، وتجسد بوضوح في الأشكال المبكرة للأدب الملحمي ،كما في الأدب الكاريلي، والتركية والمنغولية والباكوتي والفلندي ومناطق القفقاز ، وأيضا في نتاج هوميروس كما في الإلياذة والاوذيسة أو الانياذة لفرجيل ،أو الشاهنامة للفردوسي (13)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

، تـرك جلجـامش للـسومريون كنـزا كبيـرا إذا هـم أفلحـوا فـي فـك رمـوزه وطلاسمه وأحسنوا الاهتداء إلى إشاراته المحيرة، لقد أراد جلجامش لشعب سومر الخلود، احترق الجزء الأول من الحلم السومري وتحقق الجزء الثاني منه، لقد قفزت سومر إلى الخلود عندما اصطدمت أصابع العلماء الذين كانوا ينقبون عن كنوز سومر ، وظهرت كسرات الألواح الطينية السومرية المسمارية إلى الوجود وسرعان ما تحرك بركانها الخامد عندما مست رياح العلم الرافدي فوهته ، تحول إلى أقواس قزح تغطي كل أرجاء العالم ، في الثلاثينات من القرن الماضي وما تلاها من سنوات مشحونة بالعمل والبحث والتنقيب اكتملت المعلومات لدى علماء اللغات القديمة وأساتذة المثيولوجيا والآداب وعلماء الإنسانيات ومن يتبعهم على مقاعد الدراسة، لقد حاور كل تلك العقول طيف من الماضي يوازي عشب الخلود ، اختلفت الكثير من الدراسات والأبحاث ولكن الأتفاق كان أبدا في الاتجاه الذي يعزز سيادة الحضارة الرافدية وشمولها وآفاق ابتكارها غير المحدود ، لقد تعلم الكون المعاصر من رموز سومر البحث عن الخلود والحياة الجديدة والعوالم غير المرئية، ظهرت لملحمة جلجامش ترجمات عديدة ونشرت عنها دراسات بعضها يجانب الصواب، تم تصويرها في أفلام سينمائية وكذلك في المسرحيات وأشكال التعبير الإيمائي والأوبرا وكذلك البالية، فك رموز تلك الملحمة ،الخالدة والكبيرة جيش من العلماء والباحثين من أحفاد سومر، تجاوزت ترجمة العالم العراقي " طه باقر " كل تلك الترجمات التي حاولت الدخول إلى فك رموزها ، كما هي الحال في ترجمة الباحث والعالم الأمريكي" الكسندر هيديل " لقد ظل كتاب ملحمة جلجامش هو الجهد الصادق والدقيق لتفسير تلك الألواح السومرية ، حاولت الأسطورة أن تروج مفهوما واضحا على النحو التالي " الآلهة وحدهم هم الخالدون في مجمع شمش ، أما البشر فأيامهم معدودات وقبض ريح كل ما يفعلون " ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سومر " منصة الحكم والتشريع والمغامرة "

استخدم الإنسان الرافدي الرمز الأسطوري الكبير في حكاية للبحث عن المجهول والمعرفة ، وهذا نجده في الكثير من كتب علماء الحضارات القديمة وكذلك لدى الباحثين بشكل خاص في أصول الحضارة السومرية وأيضا التكوينات الدينية التي رافقتها والتي تعتبر من أعمدة تلك الحضارة وكذلك من العوامل المساعدة والأساسية لها ، مجمل تلك المعلومات والملاحظات ساعدت على تفسير النص الذي تم العثور عليه في الحفريات تلك التي شملت أرض سومر القديمة ، ذلك النص المعروف باسم " إنانا وإنكي " وهو قصيدة ذات تكوينات مليئة بالدراما التي كما يبدو وظفت بشكل مؤثر وفق صياغة شعرية تسموّ إلى نطق الآلهة وتتماثل مع نصوص الحكمة ووصايا الطقوس التي عرفتها مدينة " سومر " آنذاك ، يروي النص قصة انتقال التقاليد الحضارية من " أريدو " إلى " أوروك " بطريقة أسطورية شيقة ، فالإلهة " إنانا " وهي الآلهة الرئيسية لمدينة أوروك وكذلك تمثل آلهة الحب والخصب فيما بعد عند السومريين ، هي التي تقرر ذات يوم زيارة إله الماء والحكمة " إنكي " الذي يعتبر بمثابة الإله المعبود الرئيسي في مدينة " أريدو " ، وعندما يتم اللقاء ، يرفع أنكي كأسه ويشرب نخب "إنانا " قائلاً :

باسم قدرتي التي لا حدود لها ،

باسم هيكلي المقدس المحفوظ بالصلوات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأنفاس المقدسة،

قررت أن أعطي أبنتي " إنانا " ناموس الكهنوت

وسمات الألوهية المطلقة

سأمنحها بريق التاج النبيل،

لتغدو ملكة عظيمة فوق عرش فريد

كسفينة من خشب الأرز تمخر مياه بحر الزمن القادم ،

لك كل ذلك ، لتكوني كما أريد ،

قالت " إنانا " :

لقد قبلت بما سمعت،

ولتباركني أوروك المقدسة ،

وليقيل عثراتي ، " أنكي "

المقدس العظيم .. *

مـــع شرب الأنخاب وإعطاء " النواميس " المتعلقة بتدبير الشؤون الدينية والعـــبادات وتمثيل الآلهة وقيادة الكهنوت ورعاية المعبد ومتابعة الطقوس الدينـــية ، يـــبدأ " أنكـــي " بالـــتخلف عن النواميس الدنيوية مثل الزراعة والـــتعدين والحـــرف والموســـيقى والعدالة ونشر القوانين وما إليها من مهمات ، حتى تنتهي المأدبة وقد حازت " إنانا " على عكس النواميس التي كانـــت فـــي حماية " أنكي " لصالح مدينة " أريدو " لتركب زورق السماء وتبحـــر عائدة إلى " أوروك " ، وعندما يصحوّ " أنكي " من سكرته يدرك فداحـــة الخطأ الذي أرتكبه ، لذلك يقرر إرسال وزيره " إيزموند " في أثر "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنانا " ومعه مجموعة من " التنانين " المرعبة ليسترجع إليه " نواميسه " التـــي فقـــدها ، وفي تفاصيل المتابعة يدرك " إيزموند " ومعه " التنانين " الطـــريدة " إنانـــا " وذلك عند المحطة الأولى حيث تقبض " التنانين " على المـــركب وتمـــنعه مـــن الحركة ، وهنا تستنجد " إنانا " بوزيرتها الطيبة " تشوبور " التي تهب لنجدتها وتقدم لها المعونة وتتمكن من إطلاق المركب ، لكـــن الحكايـــة الأســـطورية لا تـــتوقف عند هذا الحد بل تواصل إنشاء التفاصـــيل والحـــوادث تخبرنا عن الذي حصل في المحطة الثانية ، حيث تـــدرك " التنانـــين " الطريدة " إنانا " وتقبض على المركب من جديد ومرة أخـــرى تـــتدخل " تشوبور " وهكذا يتكرر الإمساك وكذلك الإطلاق ، حتى تتجاوز " إنانا " المحطة السادسة وتصل بعد ذلك أطراف مدينة " أوروك " ، عندها يتنازل " أنكي " عن تلك النواميس المسروقة وينادي " إنانا " قائلا :

باسم قدرتي ، أنا أنكي ،

باسم هيكلي المقدس ،

أنا أنكي ،

قررت أن تبقى النواميس التي أخذتها إنانا ،

تتوج جبينها ، ولتشرق في عمر أوروك ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولينصرف الكاهن الأعلى إلى ينبوع الإنشاد في الحرم المقدس ،

إنانا، أيتها القادمة نحو النور والخلود ،

لتزدهر أحوال مدينتك ،

ويبتهج من حولك صغار أوروك ،

وليكن شعبك حليفا لشعب أريدو ،

ولتتبوأ أوروك مكانتها في السموّ وتصبح

كالقمر والشمس وحديث الأناشيد الذي يتردد في البعيد البعيد ..

تلــك الــنهاية مدونــة علــى الرقيم السومري الذي تم العثور عليه خلال التنقيبات الأثرية التي جرت في وادي الرافدين الجنوبي ، وهي تؤكد دون شك أن التواصل بين مرحلة تل العبيد وصولاً إلى مرحلة حضارة " أوروك " قــد تمــت لتفــتح المجال واسعاً لقيام حضارة المدينة وفي تلك الظاهرة المهمــة ترســخت جــذور وتقاليد حضارة عالمية مازلنا نعيشها ونتأمل تأثيــرها في كل المجالات ، في نهاية فترة ظهور أوروك الثانية وكما يذكر علماء الآثار وفي مقدمتهم العراقي " طه باقر " والأمريكي " صموئيل نوح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كريمـــر" وغيرهم من العلماء ، عندما يتحدثون عن ظهور النماذج الأولى للكـــتابة فـــي تاريخ الحضارة الرافدية ، وذلك عندما نغادر عصور ما قبل الـــتاريخ ونبحـــر في العصور التاريخية وذلك مع ابتداء الفترة التي يطلق عليها حضارة " جمدت نصر "

Relief carving from the palace of Khorsabad. During the second half of the 8th century B.C., Sargon II (ruled 720-705 B.C.) established a temporary capital at Khorsabad, where he built a vast palace lavishly decorated with relief carvings.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سركون الأول الأكادي

قبل الدخول في تفاصيل حياة وأعمال الملك " سركون الأكادي " وبنائه الناجح للإمبراطورية الأولى في تاريخ بلاد الرافدين ، نتوقف عند النص المدون على رقيم سومري يوجز بشكل مكثف حياة ذلك الملك العظيم ونقرأ المدون على النحو التالي :

أنا سركون ،

الملك العظيم .. ملك أكاد ،

أمي كانت كاهنة معبد ،

ولم أعرف لي أباً ،

أعمامي أحبوا المناطق الجبلية وسكنوا فيها،

ومدينتي أسمها " أوزو بيراتو "،

هي مدينة على ضفة الفرات،

حملت بي أمي الكاهنة سراً ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما ولدتني تملكها الخوف ،

فوضعتني في سلة من الصب ختمتها بالقار الأسود ،

وأنزلتني في الماء الذي لم يغمرني ،

ماء الفرات المقدس ،

هو الذي حملني إلى البستاني " آكي " ،

هو الذي انتشلني عندما كان ينضح الماء من النهر بسطله،

" آكي " الرحيم ! أخذني إليه كأبن له ورباني ،

ثم جعلني أعمل بستانياً في أرضه ،

وبينما أنا أعمل في البستان ،

منحتني عشتار حبها ،

فصرت ملكاً .. *

آكاد تنهض نحو السماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تروي كتب الحضارة القديمة أسطورة الملك " سركون الأكادي " صاحب الطموح والبطولة المطلقة ، لقد جاء في مطلع شبابه إلى مدينة " كيش " التي تقع في شمال " سومر " ، ثم دخل في خدمة البلاط الملكي ، حتى دفعه طموحه الكبير ليصل إلى منصب من المناصب العالية في هرم الدولة والحكم ، عندما صار يلقب ب " ساقي الملك " كان من يصل إلى ذلك المنصب يعتبر بمثابة الوزير المؤتمن على حياة الملك وأسراره الشخصية ، لكن " سركون " أنقلب على مليكه المدعوّ " أور – زبابا " وذلك عندما تعرض الأخير إلى هزيمة عسكرية حلت به ، قاد " سركون " على أثرها مجموعة من الأتباع من ذوي الأصول السامية فاستولى على السلطة في مدينة " كيش " السومرية ، ثم ما لبث أن رحل عن كيش إلى مدينة مغمورة في ذلك الوقت اسمها " آكاد " تلك التي كان يغلب عليها الطابع السامي ، أقام فيها ثم جعلها عاصمة له ، حتى أخذت تلك المدينة تبرز إلى مقدمة المدن السومرية المهمة ، وقد وصفها شاعر سومري بأنها مدينة الرماد التي تنهض نحو السماء ، في زمن لاحق صار " سركون " يشن الحملات ضد دويلات المدن الأخرى ويضمها إلى مملكته وتمكن من توحيد " سومر " وبقية ممالك ودويلات بلاد الرافدين لتكون دولة واحدة قوية ترهب الدويلات والممالك القريبة والبعيدة وتطالبها بالخضوع وتنفيذ رغبات حكامها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سيف الملك الفاتح

من القصص التي تروى عن الملك " سركون الآكادي " أنه كان يغادر مدينة " آكاد " في حملات حربية متواصلة بعد أن استقرت له الأمور في وادي الرافدين الجنوبي والأوسط والشمالي ، هذا الملك الفاتح انطلقت حروبه المتتالية قاصداً الشمال الغربي مكتسحاً كل المدن والدويلات التي تقع في مدار حملاته العسكرية حتى وصل إلى مدينة " ماري " التي كانت حواضرها على نهر الفرات ثم تجاوزها مستكملاً فتوحاته الباهرة لتمتد حدود مملكته على أثرها من البحر الأدنى " الخليج العربي حالياً " إلى ضفاف البحر الأعلى " البحر المتوسط حالياً " ثم أندفع بقواته ليخضع " عيلام " وأجزاء كبيرة من بلاد " فارس " كان الملك الآكادي " سركون " بعد كل تلك المعارك والملاحم الكبيرة يغسل سيفه في مياه البحر المتوسط ويخلد إلى الراحة ثم يستأنف الحرب من جديد لتأديب الفراعنة ودخول مملكتهم الواقعة في " أرض مصر حالياً " ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

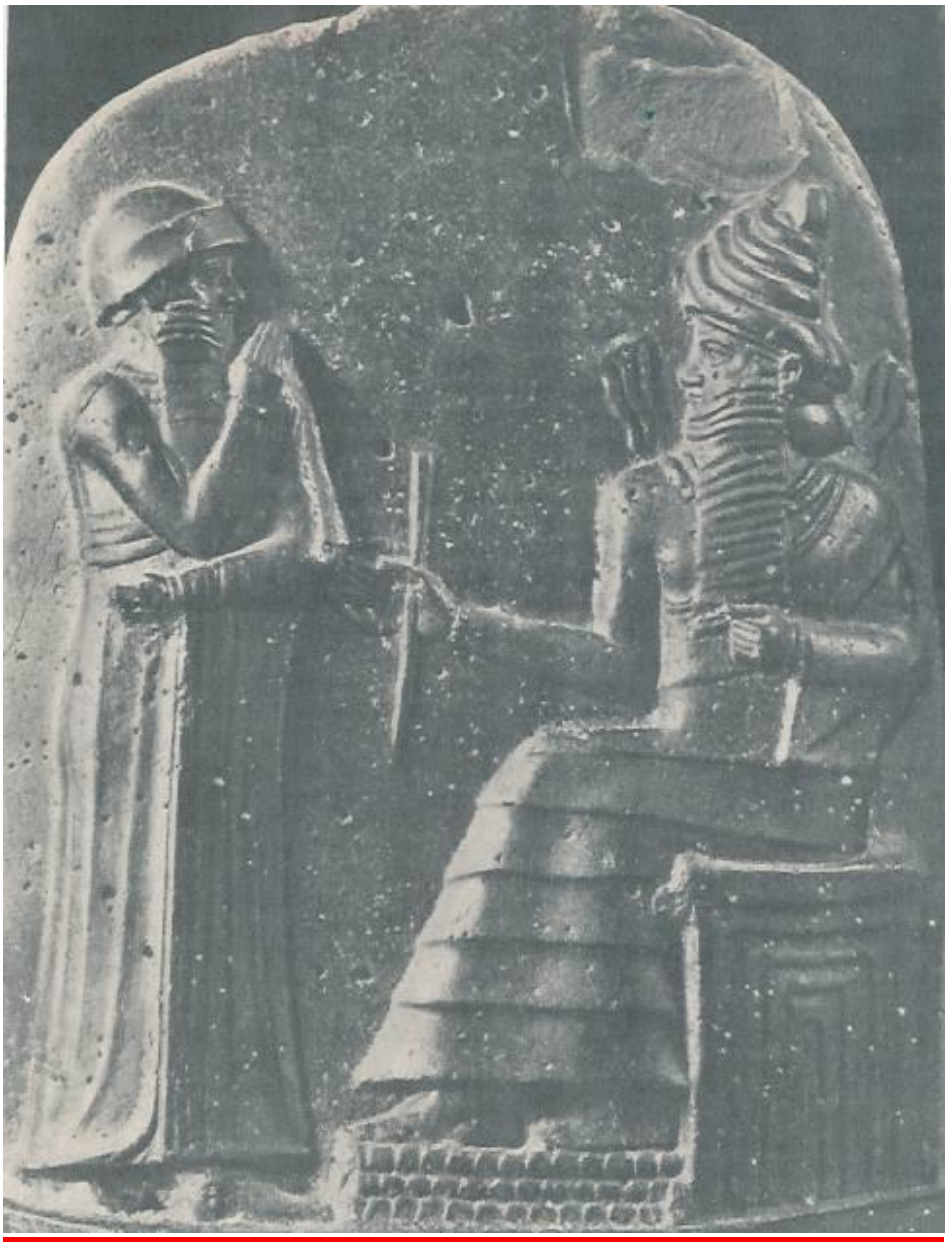

حمورابي
الملك الذي منحته الآلهة حكم أصحاب الرؤوس السود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحدد كتب تاريخ الحضارة الرافدية القديمة الفترة الزمنية التي بزغ فيها نجم أكبر شخصية وأهم ملك نقش اسمه في جبين تاريخ العراق القديم والحديث على السواء وكان أنموذجا للحاكم والمشرع والإنسان المتبحر في قوانين الكون والحياة ، كان مسرح ظهور تلك الشخصية الفذة والنادرة في مدينة بابل ، ضمن مدار القرن الثامن عشر " ق.م " قائدا كبيرا وملكا دانت له السلطة والرقاب بالحب والعرفان، حكم دولة حدودها مترامية الأطراف، اعتبرتها كتب التاريخ من أكثر وأكبر دول العالم القديم نضوجاً وتطوراً حيث بلغت فيها التكوينات الاقتصادية والاجتماعية حالة كبيرة من الرقي والتأسيس المعرفي، حمورابي البابلي ليس حاكماً بارزاً في بلاد ما بين النهرين فحسب، بل هو أكثر الحكام شهرة إلى جانب جلجامش وسنحاريب ونرام سين وسرجون الآكدي ونبوخذنصر وآشور بانيبال ، ذاع صيته في مغرب الأرض ومشرقها تهفو القلوب والنفوس إلى العدالة التي بشربها والتي تفتقدها شعوب الأرض ، أنجبت أرض الرافدين العديد من الرجال الأفذاذ وكان حمورابي رمزا مقدسا للذين يتطلعون إلى القيادة والحكمة والشجاعة والعدل بين الذين يسوسونهم ، خلد هذا الحاكم النابه نفسه وعصرة وحكمته على المسلة التي تحمل اسمه والتي غدت مضرب المثل " مسلة حمورابي " كانت صورته وبنود قوانين بابل ذات العمق الإنساني والحضاري منقوشة على تلك المسلة والتي عثرت عليها إحدى فرق التنقيب الفرنسية في مدينة " سوسة " وبعد فك رموزها صارت موضع اهتمام كل الهيئات العلمية والدارسين لتاريخ حضارات وادي الرافدين .كتب حمورابي على واجهة تلك المسلة العظيمة : أنا حمورابي ، الملك الكامل ، الذي تجاوز كل الملوك ، أنا الذي منحه الإله " إنليل " حكم الرؤوس السود، كما سلمني الإله " مردوخ " مقاليد حكم الرعية، لم أضع الوقت سدى ولم أتلكأ عن القيام بأعباء الحكم على أكمل وجه، ألزمت نفسي برعاية الأماكن المقدسة لعموم أفراد الشعب دون تمييز ، أزحت الظلم عن كاهلهم وأنرت لهم الطريق ، استعنت على ذلك بالسلاح الذي زودني به الإله " زبابا " والإلهة المقدسة " عشتار " وبالحكمة التي وضعها الإله " ايما " في عقلي ، لقد تمكنت تماماً من طرد الأعداء من بلاد بابل ، يشهد على ذلك أقصاها إلى أدناها، أحبطت شجاعتي وجسارتي وحكمتي العسكرية قوى التآمر في الداخل، هيأت لبلاد بابل الأمن والازدهار وجعلت شعبي يسكن بيوتاً آمنة ، فلن يتمكن أحد بعد الآن من أن يطردهم منها أو يتعالى عليهم ،لقد اختارتني الإلهة الكبيرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دون الناس جميعاً لأكون الراعي الذي يسهر على راحة رعيته ويقوم اعوجاجهم بعصاه المستقيمة ،سوف تستفيء بظلي الرحيم مدينتي طولاً وعرضاً وسأحتضن سكان البلاد من سومر وآكاد بمساعدة ألهي الحامي الذي هو بمثابة أخ البلاد ، سوف أترك الناس ينعمون بالسلام ، ويرغدون بسعة حكمتي التي لا قرار لها، لن أدع القوي يضطهد الضعيف وسوف أعيد للأرملة واليتيم حقوقهما ، حتى يسود العدل في بابل تلك المدينة التي رفع رأسها عالياً الإلهان " أنو وأنليل " في معبد " ايزانجيلا "الذي تقف أساساته ثابتة منذ الأزل كالسماء والأرض يشع فيه الحق وتتخذ القرارات التي تهم كل بلاد بابل ، نطق مبارك تسلمته من الإلهة أثبته أمام صورتي لأكون الملك الذي لإيجاري في العدل والتشريع والحكمة ، أنا حمورابي ؛ الملك الذي تجاوز كل الملوك . (1)

ذكريات البحث في بابل

نجد في الكثير من ألواح الكتابة السومرية والآكادية الأصل ، وكذلك ما ترشح عن ترجمة لها في مذكرات وأبحاث علماء الحضارة البابلية القديمة ، ثمة قاسم مشترك يوحد القضية الأساسية في أزمة الحكم في العالم القديم ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد كان حكام تلك الولايات والممالك ينفقون وقتاً كبيرا في البحث عن المفردات والجمل الخطابية ذات المضمون الواسع الذي لا تحده ظاهرة الضوء والصدى ، كلمات مقدسة موشاة بالحكمة مع أنها متشابهة في واقع الأمر مع رسائل واقوال تحدث بها السابقون، الذين حكموا الولايات البابلية مثل " ايسن و لارسا و اشنونا وبابل " وقبلها مدن هي الأقدم مثل " أوروك وأريدو والوركاء ولجش وسومر " ، وثائق الحكم وأعمال الملوك تشير بوضوح إلى انهم جميعا حاولوا أيجاد أنظمة ووضع قوانين موصوفة بأنها صادرة عن عقل وتفكير الإلهة التي ترعى شوؤن البشر ، يمثل ذلك التسويق السياسي في الحضارة القديمة شكلا إعلاميا دعائيا يغلق نافذة التعارض والتشكيك ، كل الملوك تقريبا عندما كانوا يعلنون شرائعهم وقوانينهم يأمرون بتحطيم السندات التي ترهق كاهل الشعب ، ويضعون قوانين تلطف من حدة الضرائب وكذلك يقترحون للإلهة النظر في تقليص مدة الخدمة في الجيش ومرافق الدولة ، ويعتبرون تلك مكاسب ترافق سنوات حكمهم هذا بالإضافة إلى قوانين جديدة للزراعة والتجارة وأمور الحياة الأخرى ، كان الخطأ والصواب يسند في حالة الحكم إلى الإلهة تلك الرموز غير المنظورة ، طوق النجاة في حالة الانتكاسة ، ورمز القوة والقداسة ومصابيح المستقبل ، فلسفة الحكم في العالم القديم مرتبة وفق معادلة الرابح فيها دوما أصحاب الصولجان ، كان الملوك ومن هم بحكمهم يعمدون إلى إحصاء المشاكل ومساوئ الحكم ثم يعلنون الانقلاب عليها لضمان فترة حكم أطول ، فهم في المراحل التي تسبق اتخاذ القرارات التي يراد لها أن تصحح المسار عن دراية تامة أن من الضروري خلق معضلة مستعصية يتيح فيما بعد معالجتها انفراجا وتغييرا يكشف عن الخوارق في فلسفة الحاكم والتشريع المسند أليه ، الحكام المتنفذين كانوا يوصفون بأنهم وراء خلق المشاكل والتردي في الحياة العامة ، هم الذين يوقعون قوانين الضرائب ويغرقون بها رعاياهم حتى تأكلهم الديون ، كما يعمدون قسرياً إلى تهديد صغار المزارعين والحرفيين والمنتجين في قطاعات مختلفة ؛ بالإفلاس الكامل ، رياح قاسية تلاحق أصحاب المال حتى يستحوذ عليه صاحب الصولجان ، جميع المعلومات المتوفرة لدينا عن ملوك وحكام العالم القديم وخاصة ضمن إطار الحضارة الرافدية تشير بوضوح إلى حقيقة لا تقبل الجدل ، وهي أن الحكام الذين كانوا يعمدون إلى نشر الشرائع والقوانين ، هم أنفسهم يمثلون أعلى مراحل الاستغلال الطبقي في ذلك الوقت ، فهم على سبيل المثال من كبار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المزارعين ، هم أصحاب الثروة الفاحشة وهم أيضا الذين يديرون دفة التجارة من خلال شبكات غير مرئية ترتبط بهم عبر وسطاء هم بمثابة عمال وموظفين لديهم ، الحكام جميعا الذين ظهروا في الفترات المتعاقبة في بلاد الرافدين كانوا يعملون بجهد واضح لخلق حالة البؤس في المجتمعات التي حكموها ، وكما يجري حاليا في تلك البلاد المنكوبة بحكامها ، مصلحة الحاكم في العالم القديم هو إدامة المشاكل المختلفة وإشعال فتيلها بصورة دائمة ، هذا الأمر يماثل حالة الصراع التي لا يمكن الاستمرار دونها، كما كان يتم إيهام الجميع بالنوايا المخلصة من قبل الحاكم للعمل على تمثيل قضاياهم والدفاع عنها بشكل مخلص ونجد أن رياح الصراع الأحادي تثيرها الشخصية الحاكمة المنفردة بالحكم وبالقرار ، أداة الاستغلال هي ذاتها أداة النضال ، كانت فلسفة الحكم في المجتمعات القديمة هي لعبة تفترض أصلا استغفال الشعب في جميع المراحل التي تعاقبت، وفي كل مرة تتضخم تلك اللعبة وتصبح غولا هائلاً مما يستدعي العلاج الجذري الذي يكون في أحسن الأحوال تشريعاً جديدا يضاف إلى تشريعات سابقة أو هو يستند إلى التشريعات القديمة ويستمد بنوده منها، كانت حالات الشد بين القوى الكادحة والمستغلة من قبل التكوينات السلطوية تدفع إلى المواجهة والتصادم في حالات شتى ، وهنا أسجل رأيا مخالفاً للذي نشره البروفيسور الألماني " هورست كلينكل " (2) الذي يرى " أن الكتابات والمؤلفات التي وصلتنا من العصور اليونانية والرومانية كانت خاضعة لمقاييس نقدية جادة، وتتخذ مواقف صارمة من الحكم ، وهي لا تتهيب أن تدين أفكاراً أو شرائع تروجها السلطة، أو تمتدحها ، وتثني عليها، ولكن مثل هذا الشيء لم يحدث إطلاقا في كل المراجع المدونة بالكتابات المسمارية " وفي البحث ضمن مجموعة الأناشيد السومرية وكذلك الأساطير والطقوس نجد ما يناقض هذا الرأي تماماً، في شكوى العادل المعذب، نلمس في اللوحة الأولى ، أنه يطلق صرخة احتجاج واضحة بسبب فقدانه ثروته وممتلكاته ومركزه الاجتماعي وانحسار ثقة الملك به وكذلك ثقة مواطنيه وذويه وتحول إلى فقر وازدراء لم يكن يستحقهما (3):

مخيف هو حلمي، عندما أنام ليلاً

والملك نفسه ، الكائن الإلهي وشمس شعبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لسوء طالعي، لم أستطع تهدئة غضب قلبه،

رجال البلاط، لا يكفون عن مراكمة العداء ضدي

يجتمعون ليتبادلوا فيما بينهم أشياء لا يحسن قولها

كأن يقول الأول " سوف أقضي على حياته "

ويصرخ الثاني" سوف أفقده مركزه "

وأما الثالث، فيقول " سوف أستولي على ما أسند أليه "

" سوف أنفذ إلى بيته " يعلن الرابع

أما الخامس "سوف أخرب .....

والسادس والسابع ضايقا ملاكي الحامي

عصابة السبعة جندت قواها...

مازالت حسب اعتقادي المصادر قليلة من قبيل تلك التي تكشف عن حجم التعارض والموقف المضاد لتيار السلطة وفق المراحل الزمنية وقد تكشف في بحر الزمن القادم عن أدبيات أخرى تلقي الضوء على هذا المجال ، ولكن ثمة رأي يقترب شيئاً ما من جوهر الحقيقة ، أن أغلب الرقم الطينية تكشف عن نتاج إبداعي لكتاب لم يرد لهم أسم واضح ومعروف وهذا يقودنا إلى أن عملية التوثيق والتدوين كانت تحت أشراف هيئة لها تماس مع الحاكم ، فمن غير المعقول أن تلك الفترات المتتابعة لم تشهد ظهور كتاب وشعراء كبار ومن غير المعقول أيضا أن تلك المراحل أقتصر التدوين فيها على أفعال الملوك والإلهة والكهنة ومعجزات الطبيعة ، يقول العالم " هورست كلينكل ": لا تفيدنا المراثي الأدبية ووصف الأوضاع الاجتماعية والسياسية المزرية من خلال الآداب البابلية في شيء، ولايمكن أن تكون بديلاً عن النقد البناء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفعلي الذي نعرفه في المجتمعات اليونانية والرومانية، إذ غالباً ما يعزى سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى أسباب دينية بحتة ، والى علاقة الإنسان بالإله ، والإله بالإنسان ، ولا يخفي أن هذه العلاقة تحوي في طياتها مضامين اجتماعية مقنعة " (4) ولكن هناك أراء كثيرة تخالف هذا الرأي وتحتكم إلى معطيات تلك الحضارة والتفاصيل المأخوذة عنها ، ولو توقفنا قليلا عند رأي عالم آخر هو " صموئيل نوح كريمر " والذي يبدو محايدا في وجهات النظر التي يسوقها عن الحضارة الرافدية القديمة :" أن الحاكم السومري كمثال ، لم يكن حاكماً مستبداً ، ولا طاغية متقلباً شرساً، فملك مثل " شولجي " كان على معرفة تامة بأنه لم يكن غير خليقة للآلهة وممثل عنها، مسئول أمامها عن ازدهار البلاد ورفاهية العباد ، فقد كان الكهان والشعراء ما ينفكون يذكرون في التراتيل التي يثنون بها عليه وفي الاحتفالات التي كانت تقام في المناسبات ، بأن الآلهة قد اختارته ونقلت أليه بعضاً من سلطانها وعقلها الإلهيين لا لشيء إلا لكي يهدي " سومر " إلى طريق الرشاد (5) .

الشرائع التي سبقت شريعة حمورابي

كانت المهمات الأولى للتشريع في محطات الحضارة الرافدية يتمثل في إحساس الحاكم بالمسئولية وبتقدير حجم الظلم الذي يدركه عن يقين والمسلط على أبناء شعبه لذلك يعمد إلى مراجعة اجندة القوانين المعمول بها أو تلك المتوارثة عن حقب زمنية غابرة ، وبعد التشاور مع جهات يثق في حكمتها وصواب الرؤيا لديها يقرر غير متردد التغيير في تلك الشرائع والقوانين المأخوذة عنها ويتطلب الأمر عدم إغضاب الإلهة التي ترى من خلال مجلسها أن ذاك التغيير يفضي إلى تخفيف القيود المفروضة على الشعب وهي قد حصلت على توسلاته ودعواه برفع تلك الثقال الجسام ، الأمور كما تبدو متداخلة الضغط الذي ينتج عن السلطة يدفع الشعب إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تجديد وشائج الأيمان والتمسك بعقيدته الدينية وعندما يأتي التغيير يكون من فعل الإلهة ورضاها ، وعندما تتغير الصورة إلى الحال الصعب تكون أيضا من غضب مستتر لا يرده سوى رضى الإلهة ، يقول هورست كلينكل في كتابه الموسوم " حمورابي البابلي وعصره " :يصعب علينا في الواقع تقدير مدى الضغط المفروض على الحاكم ومدى إحساسه بالمسئولية الملقاة على عاتقه حين كان يصدر تشريعاته وقوانينه الملكية ليخفف بها الديون عن المواطنين ، ويتصدى لظلم الأغنياء وصلف الموظفين، وعلى كل حال هو ينطلق من مراعاة العلاقة المتبادلة بين الحاجة الملحة للإصلاح وبين رجاحة عقل الحاكم وتبصره بالأمور عند دراسة الواقع الاجتماعي وتحولاته " ولعل من نافلة القول أن مسلة حمورابي هي التطور القانوني والحالة المضيئة للتشريع التي وصل أليها النظام الذي كان يسير تلك الممالك المتعاقبة ، ويتماشى مع تكويناتها الهادفة إلى شكل الإمبراطوريات الكبيرة التي تؤمن بحالة التنافس والمقارنة مع أنظمة الحكم القريبة والبعيدة عنها، أن تطورا هائلاً لم تدركه بعد كتب الترجمة التي رافقت البحث المعرفي المرتبط بفترة " حمورابي " ، وأيضا لم تصل أليه مجسات الاكتشاف ، وقد يعلن المستقبل عن معلومات تضيف نتاجاً معرفياً جديدا ، وكما أرى هناك فجوة كبيرة في سلم المعلومات المرتبطة بتكوين وحضارة الإمبراطوريات الرافدية وأقصد هنا السومرية والبابلية والآشورية، وعندما ندرك فعلاً حجم تلك التكوينات ، نتصور على خلفية المعلومات المتوفرة لدينا، أن شكل وتكوين تلك العوالم يمتلك الحضور الحضاري ، الذي تعبر عنه وسائل الكتابة وأشكال التعبير الأخرى، وفي محاولة للمقارنة بين تلك الشرائع أو ما بات يعرف بمسلات الحقوق والقانون ، نجد شيئا من التقارب والتطابق في الهدف والمضمون، فالملك أو المشرع الذي تسند أليه تلك الأفكار الوضعية يستعرض دائما الحالات التي تخص التطوير والتثوير في معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقات الأفراد بالسلطة كما تخص أيضا حالات الحرب والسلام والتعبئة نحو المشاريع التنموية التي يراها مطلوبة لتطوير الحياة وخلق حالة من النمو الاقتصادي ، وقبل ظهور مسلة حمورابي المسروقة من بابل والمدفونة في مدينة " سوسة " كان العالم المعاصر قد اهتدى إلى عدة تشريعات تخص الفترة السومرية وما تبعها ، وتعتبر تلك من أقدم التشريعات والقوانين التي اكتشفت في مراحل التنقيب الذي اطلعت به عدة بعثات أثرية، كتلك التي يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد والتي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسند إلى ملك " لجش " المسمى " أوركاجينا " أو تلك القوانين التي تسند إلى حاكم مدينة " أور " المسمى " أور نمو " ويذكر العالم الألماني " كلينكل " في هذا الصدد أن أقدم القوانين المعروفة في بداية العصر البابلي القديم هي قوانين " لبيت عشتار " الحاكم الذي يأتي ترتيبه الخامس في سلالة ملوك " ايسن " وقد دام حكمه عشر سنوات 1934-1924 ق. م وقد دونت قوانينه باللغة السومرية على عدد كبير من الرقم الطينية التي عثر عليها في مدينة " نيبور - نفر " خلال أعمال التنقيب الأثرى في جنوب الرافدين وعثر على نسخة منها في مدينة " كيش " بالقرب من بابل " (6) ويذهب العالم الأمريكي " كريمر " إلى عقد مقارنة بين قوانين" لبيت عشتار وقوانين حمورابي " ويخلص إلى وجود الكثير من عوامل التشابه من حيث الأولويات التي استهدفتها وعملت على تخليص الأتباع منها وروجت لها كحالة تشريع هادفة إلى التغيير ، وكذلك التطابق إلى حد النقل الحرفي بين الحالتين حيث المشكلات التي يناقشها المشرع مع التقادم الزمني ، وكذلك التلاقي في الخاتمة ، يذكر " كلينكل " في مجال التوصيف لحالة التشريع المذكورة التقديم الذي حملته " أن الآلهة الكبيرة وعلى رأسها " آنو وانليل " هي التي اختارت لبيت عشتار ليكون ملكا على ايسن ، وليحقق العدالة في البلاد، ويرفع الظلامة عن البائسين ، ويرد الأعداء عن البلاد، ويسحق المتمردين والمخربين بقوة السلاح، ويحقق الرفاه والأمن للسومريين والآكاديين ، وبمؤازرة كلمة انليل الحقة فقد نشر العدالة في بلاد سومر وأكاد ، ومنح الحرية لأبناء وبنات نيبور وأور وايسن بل لكل بلاد سومر وأكاد " (7) .

فضاء حمورابي

تجمعت كل الصفات التي تتشكل منها شخصية رجل الدولة الأول وكان لها أن تكون مجسدة بشكل كامل في شخصية الملك البابلي " حمورابي " الأموري ، كانت فترة حكمه التي امتدت إلى أربعين عاما من 1792-1750 حافلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالمشاكل والاضطرابات والفتن والحروب والتحديات الخارجية التي تطمع بخيرات البلاد والحصول على مرتكزاتها الحضارية، ولكن عزمه وقيادته الحازمة والقوية بددت تلك الأخطار، وجعلت سنوات حكمه الأخيرة حكما مطلقا وسيطرة كاملة على بلاد الرافدين بشكل تام ، كما هزم أعداؤه في كل المعارك التي خاضها وهو يصف ذلك في اللوح الذي عثر عليه في مدينة أور باللغة السومرية، يفتخر حمورابي مادحاً نفسه واصفا الذي حدث مع الأعداء على النحو التالي " أولئك الذين أظهروا لي العداوة قتلتهم ، حطمت أسلحتهم، ودمرت بلادهم وأخذت سكانهم أسرى، وسحقت جيوشهم، وأولئك الذين عصوا أمري وضعت قدمي فوق ظهورهم، أنا الملك ، الذي حقق رغبة الإله مردوخ القتالية وجعل قوة الأعداء الحاقدين تتلاشى، طردتهم واجتثثت جذور الشر من البلاد، وتركت المواطنين يعيشون بأمان واطمئنان في رغد من العيش ، ولم يعد هناك من يقض مضجع الآمنين " (8) أعطى حمورابي للقضايا الإدارية التي تنظم الدولة وشئونها جهدا كبيرا وقام بترتيب سياقات الجهد الحكومي بتدبير ومتابعة دقيقة ، ولم يكن ذاك الاهتمام حالة يوصف بها حمورابي لوحده بل هي تكاد تكون عامة لدى جميع الملوك السومريين والاكاديين والبابليين الذين سبقوا حمورابي،كلهم كانوا يتدخلون في أدق التفاصيل المؤثرة في أدارة شئون الحكم وكان ذاك التدخل محموداً ويعتبر شرطاً لازماً لتعزيز مبدأ السيادة والقيادة، فالفكرة التي تتوارثها بلاد الرافدين في فلسفة الحكم والقيادة تفيد أن القائد أو الحاكم أو الملك هو أكثر الناس وعياً ومعرفة وعليه أن يرتب كل شيء ويتدخل في تفاصيل ما يراد إنجازه لكي يكون جوابه للآلهة حاضرا صحيحاً شاملاً ، فليس مقبولاً أن يتلكأ ويتردد ويطلق معلومات غير صحيحة، كان حمورابي ومن سبقه كل يعمل على تعميق ارتباط المواطنين ببعضهم، الملك وحده هو الذي يستطيع الإلمام بالحالة العامة وتوجيه سياسة الدولة في الاتجاه المطلوب ، وقد اتصفت سلطة حمورابي أيضا بوجود مقومات دينية ، يبررها وتقدم له الدعم المعنوي والقوة في المواجهة واقناع آهل بابل، كان يوصف بأنه منفذ لإرادة الإلهة، ومن هنا تبرز قضية شعوره بأنه المسئول الأول عن ترتيب العلاقات الاجتماعية ، وكذلك أحوال الزراعة والتجارة والعمل الحرفي، أخذ على عاتقه مبدأ تطوير أنظمة الري وحفر الأقنية والأبار وتشييد وتطوير دور العبادة ، ويسجل له أيضا مراقبة مدى محافظة المستثمرين عليها في وضعية ملائمة، كان مسئولاً أيضا عن التقيد بالقواعد القانونية بين الناس ومن هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلاقة بدأت لديه الفكرة في دراسة كل الشرائع الوضعية القديمة والتمعن فيها وتشكيل مجلس لدراستها والبحث عن قوانين بديلة لتلك التي استهلكت ولم تعد تنفع مع تقادم الزمن والتطور الذي شهدته البلاد حتى توصل في نهاية الأمر إلى وضع شريعته المهمة والتي خلدته كحاكم ذائع الصيت كما فرضت تلك الشريعة ببنودها المختلفة والتي ترسم صورة للتطور والرقي الاجتماعي والحضاري ، وترسي قواعد قانونية صارمة تنسجم مع روح ومفاهيم العدالة التي كان المجتمع البابلي يتطلع أليها وقد ذهبت قاعدته الذهبية الشهيرة في الحكم " العين بالعين " مضرب المثل على شدة الحكم ودقة تنفيذه ، وعندما يشار إلى نظام القانون المتكامل في بلد ما ، يستذكر حمورابي ويشار إلى القانون المعمول به في تلك الدولة على انه صنو قانون حمورابي ، ومن سخرية القدر أن تلك البلاد التي قدمت للبشرية كل تلك الشرائع والقوانين تفتقد الآن القانون ، وتعيش في حالة من الفوضى وغياب العدالة والحرية ،لقد أحتفظ حمورابي لنفسه في ذاكرة الأجيال المتعاقبة بصورة الملك المثالي والرمز القدوة للملوك والقادة والحكام ، اتفقت كل الكتب التي راجعتها على تأكيد حقيقة واحدة مفادها أن حمورابي البابلي كان واحداً من ألمع الملوك وأكثرهم نشراً للعدل والقانون .

مسلة حمورابي

تتألف المسلة البابلية من ثلاثة مقاطع كبيرة وواضحة تأتي على رأسها المقدمة ، ثم يلي ذلك نص القوانين ، وأخيراً الخاتمة ، وهذا الترتيب يتناغم مع الترتيب الموجود في نصوص التشريع السابقة، والمقدمة تكشف عن إنجازات حمورابي العسكرية وانتصاراته وتشكل المقدمة والقوانين والخاتمة وحدة عضوية مترابطة لا يمكن الاستغناء عن بعضها البعض وهي تعطي انطباع أن حمورابي الذي اختارته الإلهة ليكون سلطتها في الأرض ولينفذ العدالة ويقضي على كل أشكال الظلم وينشر الحق مستخلصا ما للفقير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضعيف من لدن الغني المتجبر وليكون بمثابة الشمس التي تشرق فوق الرؤوس السود في مدينة بابل وتنير لهم سجف الظلام فوق الأرض دون تردد أو خوف، يؤكد حمورابي دعمه لجوانب الخير والأهداف السامية المرتبطة بها والتي وضعها نصب عينيه وهو يرشد صاحب الشكوى في التقدم بشكواه على النحو التالي : على المواطن المظلوم الذي يرغب في رفع الحيف عن نفسه أن يتقدم أمام صورتي بصفتي ملك العدالة، ويقرأ ما كتبت ، ويسمع كلماتي الثمينة، فتمثالي يهديه سواء السبيل ويطلعه على خفايا الأمور ليصل إلى حقه ويتنفس الصعداء ...

المصادر والهوامش

بلاد أشور، تأليف أندريه بارو ، ترجمة وتعليق د، عيسى سلمان وسليم طه التكريتي

الطقس الجنسي المقدس عند السومريين ، تأليف س. كريمر

الفن في بلاد ما بين النهرين تأليف ، كريستينا غافليكوفسكا

ملاحم آسيا الوسطى الشفوية تأليف، نوراك تشادويك وفيكتور جيرمونسكي

سومر فنونها وحضارتها ، تأليف أندريه بارو ، وزارة الثقافة العراقية

James Mellart, Earliest Civilization Of The Near East.

J - Cauvin, Religions Neolitquse.

S.N. Kramer, History Begins At Sumer.

James Mellart, Catal Huyuk.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Sumer, Ajournal Of Archaeology And History in Arab World No 1-2 1980.
Dumuzi and INANNA.
Sztuka Mezopotamia.

- ملحمة جلجامش- ترجمة طه باقر بغداد 1980 -وزارة الثقافة العراقية - بغداد
- ملحمة جلجامش - ترجمة سامي سعيد الأحمد - دار الجيل -بيروت 1984
- الحقيقة التاريخية - لطفي عبد الوهاب يحي - مجلة عالم الفكر - المجلد السابع عشر- العدد الرابع 1987- الكويت
- نظرية الأدب - عدد من الباحثين السوفييت المختصين بنظرية الأدب والأدب العالمي- ترجمة د. جميل نصيف التكريتي - وزارة الثقافة - بغداد 1980
Heidel,Alaxunder,TheGilgamesh Epic, - Phoenix Book, Chicago 1963
Kramer , S ,N, Sumerian Myths and Epic- - Texas-1969
Joseph Campbell, The Masks of God - London,1977

*** هذه المقاطع من مخطوطة للكاتب عن " إينانا آلهة الأرض والسماء ..**
-النص ترجمة مباشرة من اللغة السومرية أنجزتها مع نصوص أخرى ..
-أنظر كتاب العالم الألماني " هورست كلينكل " المعنون " حمورابي البابلي وعصره " تعريب الأستاذ محمد وحيد خياطه ، من إصدارات دار المنارة - سوريا
- راجع " ديوان الأساطير السومرية " للأستاذ قاسم الشواف ، إصدار دار الساقي - لندن
- شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم - مجموعة من المؤلفين - ترجمة الأستاذ أسامة سراس _ سوريا
- طقوس الجنس المقدس - س. كريمر ، ترجمة الأستاذ نهاد خياطة - سوريا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- نـشوء علـم الـتاريخ -ن. أ . بـروفييف ، تـرجمة د. حـسان أسـحق - نـشر أبجدية المعرفة - سوريا

-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com